توبة الآبق

معرَّبة بتصرُّف بقلم الاديب جوزيف وحيد غريبه

لتحيى فرنسا ! ليسقط البروسيان ! على برلين !

هكذا كان اولئك الجنود الشجعان يهتفون وكانت الحماسة تزدادُ في صدورهم كلَّما زادَ عددهم وهم يسيرون في شوارع طروى في شمپانية ليلة ١٨ تموز سنة ١٨٧٠

اما لويس بَرْس فكان داخل غرفته واقفاً واجماً بينما كانت لوسي زوجتهُ واقفة على قدميه تتوسل اليه بان لا يتركَ وطنهُ في تلك الساعة الخطرة وهو محاجةٍ فيها اليه . وكان لويس يصمّ اذنيه عن توسلاتها ويغمض عينيهِ عن دموعها ويقنعها بان لا بُدَّ لهُ من الهرب في تلك الليلة . «انَّ الحرب واقعة لا محالة يا لوسي وانا لا يسعني الانضمام تحت العَلَم . فلقد خدمتُ الجندية سبع سنوات وهذا حسبي . والان فليذل غيري نفسه عن الوطن . وانا في هذه الليلة ساذهب الى سويسرة واشتغل ولرسل لك كفايتكِ من الدراهم . ومتى تمَّ زمان وضعكِ ابعث فآخذكِ الى عندي مع المولود الجديد وطفلنا روجيه» . اخيراً افلتَ نفسهُ من بين يديها ثمَّ انحنى فوق سرير الطفل فطبع قبلةً فوق جبينه والدموع ملءُ عينيه ثم عانق امرأته للمرَّة الاخيرة وهرول نحو الباب . . .

بعد مضي نحو ساعتين من الزمان كنت تشاهد الظلام حالكاً في ذلك البيت . . هنا امرأة منطرحة على الحضيض تبكي وتنتحب وتتضرع الى الله وعن يمينها تلألأ سريرٌ يهتزّ والطفل فيه راقد لم يعِ لما جرى . هنالك بالقرب من النافذة وقف يومٌ يندب فزاد في هول ذلك الموقف المريع

١

مرَّت ستة شهور بعد تلك الليلة ونحن في اواخر كانون الثاني سنة ١٨٧١ . فتجلى صباح احد ايامه وقت ساعةٌ صطوك لدى مخزن خيّر خيّر في احد قرى سويسرة التي على الحدود الفرنسوية وكانت يد التعيس في جيبه وبها قطعة من الشيكل

استطاعها على الطريق . ولمّا لم يكن لديه غير تلك العشرة السنتيمات وما كان ان يسدّ بها رمقه وطّنَ نفسهُ على الصيام بقية النهار . . ما كان ذاك المسكين غير صاحبنا لويس الذي بقي شريداً كل ذلك الزمن . وقد بلغ سِدْن وزوريخ ولكن لم يستطع ان يحصّل لا شغلاً ولا دراهم . وكان السويسريون مع ما اشتهروا به من حبّ الاحسان واكرام الغريب ينظرون بعين الاحتقار نحو ذلك الطريد الآبق . وبعد ما حلّ بفرنسة من المصائب والفشل تحوّل احتقارهم الى بغض وكراهية وجعلوا يرمونه بالحجارة كلّما تجاسر وقرع احد الابواب . نعم انهم كانوا يفتحون صدورهم للجنود المكسورين في الحرب ولكنهم لا يريدون بين ظهرانيهم خوَنةً آبقين !

وقد حدث في تلك الليلة ان احد المزارعين بالقرب من الحدود الفرنسوية كان بحاجة الى مساعدٍ فاستأجر الآبق لدَرْس حنطته . ولكن المسكين لم تكد تستقرّ قدماه بين الصلة حتى ثارت من نحوه الظنون . وقد سألوه كثيرًا عمّا دعاه الى الوجود بينهم بينما مواطنوه يستبسلون دفاعاً عن وطنهم فادّعى الرجل انّ فقرهُ وعوزه منعاه عن السفر والالتحاق بفرقته . فصدّقهُ كثيرون وتحنّن قلبهم عليه ولمّا كانوا يحبّون فرنسة جمعوا كلّ ما كان في جيوبهم حينذاك من الدراهم وقدّموها له وحثّوه على السفر للحال

صعب على لويس في بادئ الامر ان يصدّق ما رآهُ من إحسانهم اليهِ وما كاد يضع الدراهم في جيبه حتّى عوّل على السفر . والى اين ؟ الى فرنسة وطنه المحبوب !

انقبض قلبه لمّا سمع بما حلّ ببلادهِ من الدمار وبعد ان كان ليلة هربهِ يفتكر بان الوطن يمكنه الانتصار بدونهِ اصبح الآن يَوَدّ لو كان له جناحان فيطير الى هناك بين المدافع وتحت النار . . . كان يتخبّط في الظلام بينما كانت الهواجس تتقاذفهُ والهموم تتنازعهُ . ما الذي حلّ بلوسي زوجته وروجير ولده ! يا ترى هل يراهما فيما بعد ! كيف يعيشان الان وحدهما بلا سند ولا معين بين الالمان الهمَج !

وكانت قراه تخور شيئاً فشيئاً من الجوع واذا به امام بائع خبز . فسأله كسرة خبز بعشرة سنتيمات وبينما البائع يقطع له جزءاً من رغيف اسمر اللون وقعت عيناه على جريدة الكوريه دُه ليون (بريد ليون) القادمة من وطنهِ الآبق فاختطفها من

على المائدة ليتلقّف منهـا الاخبار المطمئنة وما اشدَّ ما كان حزنه لمّا وقعت عيناه على هذه الاسطر :

« يتقدم البروسيان بتواصل ـ ردَّ البرنس فريدريك شارلس في ١٢ كانون الثاني شاتريَ الى ما وراء سيان . وقعت خسائر فادحة بالجنرال فِدْهرب الذي كان هجم على سن كنتن في ١٦ الشهر . كان بورباكي قد قام بهجوم على بوتارليه ففشل والان يريد ان يبلغ سويسرة . الشائع ان جيش باريس سُحق في بوترفال وهو موشك ان يُسلّم للعدو . يرتكب البروسيان فظائع بربرية في كل موضع وطئوه . يسيئون معاملة النساء والشيوخ . . . »

ترك برس الجريدة مكانها ولم يسأل عن كسرة الخبز بعد ان دفع ثمنها ولم يعد يشعر بتعب ولا بجوع بل جعل يعدو نحو . . . الوطن ! . . .

اجتاز تخوم سويسرة فصادف عند منحدر فيرير بقايا جيش بورباكي الذين كانوا مرتدّين الى الوراء فتحرّكت المروّة في رأسه وانتعشت في صدره روحه الجندية القديمة وقد شاهد في مؤخر الجيش فصيلة فرنسوية تقاتل أخرى من الخيّالة البروسيان وكان الجناحان يريدان ان يصدّا العدو عن الهجوم . واذا بقائد خرّ على الحضيض يتخبّط بدمه من رصاصة اصابته في جبهته فهجم الجندي الآبق وقد شاهد جندياً بروسياً يخطف علماً مثلث الالوان فضربه في رأسه فالقاه صريعاً واسترجع منهُ الراية وجعلها تخفق في الهواء ثم كرّ نحو القائد الساقط فانتشل مسدّسه من على الارض ووقف الى جانبه يصدُّ عنه الطوارئ

لم يتمكن العدو مع كثرة عدده من الثبات امام تلك الفصيلة الافرنسية فارتدّ الى الوراء وهكذا أمن جنود فرنسا في سيرهم . فنقل لويس القائدَ الصريع الى كوخ بالقرب من هناك واخذ يعتني بامره الى ان صحا من ألمه فاخبره انه القائد ده مارسلي وشكره عن صنيعه معه وتخليصه اياه . واذ راهُ بثياب مدنية اوصاه بان يختفي عن العيان لئلّا يُشتبَه بامره . ثم سلّمه العلَم المخرّق وسأله ان يحفظهُ بأمن لئلّا يسلبه الاعداء . فودّع الرجلُ القائدَ وذهب في سبيله . ولمّا بَعُد قليلاً حفر في الارض وطمر العلَم وقبل ان يهمّ بالانصراف اذا به رأى صرّة بقرب من شجرة . ففتحها وشدَّ ما كان دهشه اذ رأى ضمنها بدلةً عسكرية عرف ان صاحبها آبق نظيره . فتصوّر اذ ذاك فظاعة جرمه فقال في نفسه : لقد كفّرتُ بعض التكفير فقط عن اثمي فلأقومنّ بالواجب حتى النهاية ولاموتنّ في سبيل الوطن ولكن ليس بثياب مدَني بل بثياب

جندي حقيقي. فلبس البدلة وسار في طريقه. لكنّه حينذاك اخذ يشعر بشدة التعب وقد اثّر فيه الجوع والعطش مع البرد فسقط فوق الثلج مغشيًّا عليه ...

مرّ من هناك زرّاع مسافر فرآه على تلك الحالة فحمله في عجلته وذهب به الى بزانسون ومن هناك نقلته عجلةٌ الى المستشفى العسكري في ديجون. وكانت هذه المدينة بين يدي العدو منذ غادرها گريبلدي لكنّ محافظها الافرنسي كان باقياً في وظيفته مستلماً ادارتهُ تحت المراقبة البروسية. فلما صحا بَرْس من غشيانه اخذوه الى غرفة الاستنطاق. ولم يعرفوا كيف يؤوّلون وجود ذلك الجندي ببزّته الرسمية في ذلك المحل بعيدًا عن فرقته: العسكرية. فصرخ البروسيان: جاسوس! وقد ادرك هو حراجة موقفه فلم يُجب على ما القوه عليه من الاسئلة وعليه زُجّوه في سجن مظلم

٢

أما ما كان من لوسي وروجير فقد كانا في شقاء عظيم. اذ توالت الايام وتعاقبت الاسابيع وانقضت الشهور والدراهم التي وعد لويس بارسالها لم تصل بل انّ اخباره كانت مقطوعة بالمرّة. وقد التزمت المرأة لتعول طفلها ونفسها ان تشتغل مدةً في احد المعامل. ولكن لم يمضِ الّا زمن وجيز حتى أُقفلت كافّة المصانع لوقوف دواليب الاشغال ولقرب وصول العدو. فاشتدّت وطأة الحزن على المسكينة واخذت قواها بالانحطاط مما اشار الى دنوّ اجلها. فنقلتها راهبات المحبّة الى مستشفاهنّ واعتنينّ بامرها وقد تمّت ايام وضعها فولدت ابنةً عند رها في ساعة ميلادها ودعوها مادلين. ولم تستطع ام المسكينة ان تضمّها الى صدرها اكثر من مرّة واحدة لأنّ داعي ربها ناداها في تلك الليلة ولم تردّ بدًّا من اجابته ...

كان الآتم خارجاً من المستشفى بغاية البساطة لا اكاليل زهور تغطي النعش ولا احد الاقارب يرافقه فعاين ذلك رجلٌ من نافذة في المستشفى تفسه فتأسّف لحالة تلك الزاحلة وقد سأل الراهبة عن اسم الميتة فقالت له: هي امرأة مسكينة في ربيع عمرها تُدعى لوسي بَرْس ماتت غمًّا وقهرًا لان زوجها كان من آبقي الوطن. فلطم الرجل على رأسه وقال: أماتت اذًا وا أسفاه!.. وانقلب فوق سريره مغشيًّا عليه..

كان صاحبنا لويس نفسه الذي هرب في ليلة مظلمة من سجن ديجون. وكان يختفي نهارًا ويزحف على بطنه ليلًا الى ان بلغ ظرزوى موطنهُ فقصد بيتهُ فرآهُ قاعًا صفصفًا

تنصب فيه القربان .. وقد اقتل هو وأحد الجنود البروسيان وسيق الى المحاكمة فجلد خمسة وعشرين جلدة بسياط من الفولاذ على كتفيه العريانتين الامر الذي كاد يقضي على حياته واستلزم تطبيبه في مستشفى . وهكذا ساقته التقادير الى غرفة ملاصقة للغرفة التي كانت تتقلب فيها زوجته المسكينة على سرير النزاع فعاين جنازتها

٣

عن ستروغ ، سويسرة في ١ اذار سنة ١٨٩٢

الى الكولونيل ده مارسلي ، كولونيل الفرقة الاجنبية

سيدي . . . اريد الانضمام في سلك جيشكم لاخدم فرنسة . انا طويل القامة ، قوي البنية ، لي من العمر ثلثة وعشرون عاماً . . .

روجير ابن لويس

عن ستروغ ، سويسرا في ١ اذار سنة ١٨٩٢

الى الكولونيل ده مارسلي ، كولونيل الفرقة الاجنبية

سيدي . . أتذكر هضبة بوراك وقائداً من جيش بوراكي سلّم لاحد المارة علمهُ الثلث الالوان ؟ لقد سمعتُ باسمك ، سيدي الكولونيل ، فافتكرت انك انت نفسك ذلك القائد . وعليه اقول : كان ذلك الرجل الذي خلّصك وخلّص العلم آباً من جيشه ثم عاندا الى وطنه نادماً . وقد قضى هذه العشرين سنة عاشاً منفياً كئيباً تعيساً . واليوم يكتب لك ابنه للانضمام في فرقتك مقدمة الجيش الفرنسوي فاقبله صدك ايها الكولونيل وفاء بالعهد القديم

وان اردت ان تعرف ما الذي حلّ بي من يوم تركتُك في ذلك الكيوخ . فقد عدتُ الى فرنسا وبلغتُ مدينتي بالرغم من كل ما اعترضني من المخاطر . فشاهدتُ وفاة امرأتي وقد خشيت المثول في الديوان الحربي فعدتُ ولجأتُ الى الفرار مع ابني ذاته وقد جئتُ فاقمتُ في هذه المدينة . انما بعد ان تمكنتُ دليلاً للسياح في اسفارهم بين الصخور وجبال سويسرة

ادخلتُ ابني مدرسة فتعلّم الالمانية والافرنسية والانكليزية ولكنهُ يفضّل فرنسة على الجميع ولا غرو ففي عروقه يسيل الدم الفرنسوي . وعلى حليب فرنسوي غذا وعاش . وكان ولا يزال يتوق الى الذهاب الى فرنسة ولكني انا لا استطيع ، لاني اخشى العار الذي يتهددني فيما لو وضعتُ قدميَّ هناك

اما علمُك فقد اصحبتُه في اسفاري وعلّقته كذخيرة مقدّسة في غرفتي واخفيتُ قصتهُ عن ابني وهو هو نفسه الذي أولد في قلبه هذا الحب الشديد نحو الوطن وشوّقهُ الى الاستبسال في سبيل فرنسة لارجاع مجدها الغابر . انا يوبّخني ضميري ويُكدّر عليَّ حياتي . وهو يريد ان يعلم

اسمي لكني خفيتُه عنهُ حتى الان لئلَّا يعرف احد عنهُ شيئاً فيتلطَّخ اسمهُ بالعار ويفقد مستقبلهُ بسببي

ولما كانت الفرقة الاجنبية لا تسألُ المتطوعين فيها عن اصلهم ام اسمهم بل كل ما تطلب منهم ان يكونوا جنوداً بُسلاء فلهذا رضيتُ ان ينخرط ابني في سلك المتطوعين وتحت قيادتكم

كنتُ أفضّل الموت على فراق وحيدي ولكن في الوقت الذي يحتاج وطني المحبوب الى مساعدته تركتهُ يذهب بكل طيبة خاطر راضياً اياه تحت رحمة الله ومؤمّلاً ان ينال بسالته وشرفه اسماً عبيداً يمحو العار الذي لصقَ باسمي ويكفّر عن ذنبي ويالُ لي الغفران . . .

لويس بَرْس

٤

في صباح ١٣ شباط ١٨٩٥ كنتَ ترى حركةً غير اعتيادية في مينا مدينة الجزائر الافريقية : مراكب حربية ومدمّرات وجنود وأعلام ومدافع وبنادق الى غير ذلك من آلات التدمير والخراب . وكانت فرقة الجنود منظّمة لدى الشاطئ بثيابها الرسمية والكولونيل ده مارسلي يستعرض جيشه والملازم روجير يدعو جنوده باسمائهم . وكان روجير قد ارتقى في مدة سنتين بشجاعته وحميد اخلاقه الى رتبة ملازم تحت قيادة الكولونيل ده مارسلي .

اعلن الملازم بعدّة اسماء لم يعبأ بها اذ كانت من لغات مختلفة لكنَّ اسماً واحداً استوقفهُ ونفذ صوتهُ الى اعماق فؤاده . قال : « لويس ابو روجيره » . واذا برجل متقدم في السنّ صرخ من بين الجموع وقال : حاضرا . فوقف الاب وابنه برهةً سبرتين ينظر احدهما الى الآخر لا ينطقان بكلمة . اخيراً استظهر الابن على عواطفه وصرخَ : ابتِ ما الذي اتى بك الى هنا ؟

ولدي ، من يوم انضممتَ انتَ الى هذه الفرقة كنتُ انا اتخبّط بين تيّارين عظيمين : لم اقوَ على فراقك انت وحيدي ولم أرد ان اصدّك عن خدمة وطني المحبوب وانتَ تبذل نفسك في سبيله فقضّلت ان انضمّ انا بذاتي الى الجيش نفسه فإمّا نموت كلانا معاً وامّا نعيش حينئذٍ سعيدين . . . (الها بقية)